



المعهد الثانوي الفاس النخبة - مسألة الفصريّة والكويّة

## هل يجعل الاختلاف الحوار مستحيلا؟

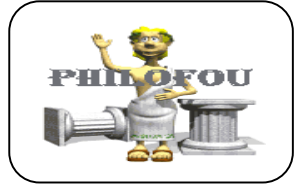


مراجعة وإعداد:

الصمعي بوقرة

أحمد الملولي





## مرحلة البناء

لعلّ المشكل الحقيقي الذي يواجهنا اليوم هو الانطلاق -للتفكير في المسألة- من رهن متوتر حلّ محل الحوار فيه إما خطاب العصا أو خطاب الصمت، و ما يزيد المشكل تعقيدا هو ما يسم الواقع الإنساني اليوم من تعدد واختلاف وتنوع، ولكن وعينا بالقيمة الحقيقية لفلسفة الحوار أو لفلسفة تتخذ من الحوار منطلقها هو الذي يدفعنا للتفكير في مسألة منطلقها متوتر و رهنها تشعل الأزمة فيه حطب الإرهاب، إذ يمكن للحوار أن يلعب دوراً حيوياً وهاماً في خفض مثيرات العنف والإقلاق من احتمالات لجوء الأشخاص إلى العنف كوسيلة للتعبير عن أنفسهم أو كطريقة لحل مشكلاتهم، ورغم أننا على كل المستويات وفي كل المناسبات (تقريباً) نتحدث عن أهمية الحوار ليس فقط كوقاية من العنف وعلاج له وإنما لتحسين نوعية وجودنا الفردي والاجتماعي والإنساني، رغم كل هذا، فإن لدينا مشكلات عميقة وعديدة تتجاوز المعنى والدلالة لتفكر في العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" و بين "النحن" و "الهم"، وعمقها أو تنوعها إما يكون بسبب انسداد قنوات الحوار (كلها أو بعضها)، أو بسبب شيوع أنماط غير صحيحة للحوار<sup>[1]</sup> بيننا. وكلا السببين يؤديان إلى تعطيل عملية التواصل الصحيحة مع ما يتبع ذلك من مشكلات في العلاقات يكون العنف أحد إفرازاتها. ونكشف أن المسألة لا تختزل في تحديد دقيق لدلالة الحوار سيكون استشكلنا للدلالة هو في الحقيقة استشكلنا للعلاقة بين واقع الاختلاف ومطلب الحوار، فهل الاختلاف الثقافي عائقاً أمام حوار ممكن؟ وإذا كان الاختلاف يحيل على الكثرة ومنطق الخصوصية فإن السؤال سيتحول في جوهره تفكيراً للعلاقة بين الخصوصية والكونية، فهل يقتضي القول بالخصوصية الانغلاق على الهوية الثقافية؟ وهل يعدّ الحوار باعتباره انفتاحاً على الآخر تنازلاً عن مقوماتنا؟ وهل من معنى لحوار نعتز به فيه بأخر لا يعترف بنا؟

## مرحلة البلورة

للحوار، في الدلالة العامة معنى المجاوبة، أو مراجعة النطق والكلام في المخاطبة والتحاو والتجاوب؛ وهو بهذا المعنى تبادل أفكار بين فريقين أو أكثر في إطار موضوع ما، حول قضية ما، بغية الاتفاق على صيغة حل أو اتفاق أو تسوية في شأن القضية التي هي مدار الحوار. ولعلّ أهم المعاني التي يقوم عليها الحوار هي تجاوز الأفكار القبلية، والتي غالباً ما تشكل عائقاً في وجه الغاية الأساسية من انعقاد الحوار. وينبغي للآليات العامة التي تجعل الحوار يفضي بالمتحاورين إلى غاياتهم المنشودة أن تلتزم مبدأ التكافؤ والقبول والتوازن فيما بينهم. ذلك أن الحوار في أحواله ومبانيه وغاياته قائم على الاعتراف المتبادل، وحق كل فريق، سواء كان فرداً أو جماعة، في المشاركة المتساوية المتكافئة في تقرير الصياغة النهائية لشكل ومضمون المسألة التي يجري الحوار بشأنها. وعلى هذا الأساس فإن استقامة الحوار على مبدأ التوازن والتكافؤ والاعتراف والاحترام والتسامح يفترض مراعاة جملة من الشروط والقواعد والآليات يمكن إجمالها على النحو التالي<sup>[2]</sup>:

<sup>1</sup> - سأقترح في هذا العمل أنماطاً من الحوار اعتبره أنماطاً شاذة أو مغالطية، وسأبين كيف أن المشكل لا يمكن في مجرد كونها شاذة وإنما في كونها تحيل على أنماط شائعة، إلى درجة أن البعض عدها طبيعية.

<sup>2</sup> - ريتا أيوب، "شروط الحوار"، ملخص اللقاء الثالث حول "الأساليب العملية الآيلة إلى تشجيع الحوار" -معهد الدراسات الإسلامية في جامعة القديس يوسف.



## المفوار الفففي [ ما بب أه بفوف ]

أولاً: ووفوف علافة أففة ببب المفافوف

الفوار لبس قفراء يفرف على أطراف عفهم الفافوف معه بفاف وافب ما أو إرافة أارفة عنهم، بب إن الفافز إلفه يففراف أن فكون فابفا من الفاف، إن الرفة بالفوار، هف رفة باكففاف مسفر للفاف من ألال الأفر، بالفواف مع اكففاف مسفر وففر ففافي للآخر.

نلافظ بالففر هذه الأففة أو الشرط ضرورة الاسفءاف للففار الذي فسبق أف فوار.

فانفاً: انفاف الفنا على الأفر

هو الففر إلف الأفر، له ووفوفه، وشففففه، له مفزافه السالفة والموففة. بما ففمله معنى الففر من فلالة الاعفراف والاهفام، إذ فنبف أن فكون لف الففاعة الكاملة، بأن الأفر هو ففان كامل مفصل عف. إن لم اسفطع الففر إلف ذلك الأفر من هذه الزاففة، ففانف أكون ففان فافور فافه، أو ففان فافور فاففا أبفكره وفق ما فرفف.

← هذا الشرط فراهف على فففة الاففلاف من ففة الفماف لا من ففة الفمفز.

فالفاف: الففر للآخر فافر

أن أفرم الأفر، هو أن أراه فف، فاففا عن أف اففام فعلن أو فامن فف فافف. وبالفاف أن اففر إلفه فاففا عن أف ففة بففففره فاففره بفلك من أفة ففرة عففة فاف أم سلسلة فمكن أن أسفنه مسبقاً ففها. أن أفرم الأفر، هو أن أففل أن له الففة الفف أعفف لف فون ففافة أو ففان، فالفففه فف، وبالفاف أكون بفلك فف ففوفه فف فففر إلف من فف فاف، لا من فف فرفف لف الفوفوف، أو يففراف أنف أفف.

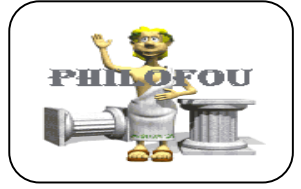
لا اسفطع أف فف ما فراه هذا الفافف أمامف، إلا إذا فافف أن أرف من زافففه، وبالفاف، لا فسفطفع هذا الذي أفافور وإفاه أن فرف ما أراه، إلا إذا سافففه فف فرف ما أراه من الزاففة الفف أفف ففها.

فامسا: رفص الاعفاف فف اففلاك الففففة

وهو الاففءاف عن الففر بالفرف، فف لا ففبف الففار "مونولوففا"، فافور ففها الفرف مرأة فامفة أمامه. فالففار هو فافف ببب فاففان أو أففر، ففملان معاً فورة فاففة. كل طرف فمفلك فزفاً من الفورة، فعفما ففافور، عفنا الانفلاف من أن كلاً منا فمفلك فزفاً من الففففة. فالففففة فاففنا فف فففر منفا بالفامل، وعبفاً ففف فف ففلفها ونفن فقف فف زاففنا، فالالفافق بالفزاففة فسفنا فف الزاففة، فعف عفوننا عن المشفء الأفر من الففففة، عن الألوان الأفر للفففة.

من هفففففف أفف شروف الففار هف الفوافع و الفرافة الفف فسف فف بأن أففل أن ما لفف فف فف إلا الفزفا، وما لفف الأفر هو فزفا أفر.

سادسا: الففف مع الفورة المسبقة للآخر



#### البعد الثانوي الخاص النخبية - مسألة الفعورية و الكونية

لا نستطيع القول بأننا نتحاور كطرفين، إن نحن نظرنا إلى الآخر انطلاقاً من تعميم، يُخرجه من فرادته، بذلك، أساعده كي ينظر إلى خارجاً عن الكتلة التي أنتمي إليها. فالصور المترجمة عن الآخرين، التي يساعد على رسمها غالباً أحداث عشناها مع أفراد تنتمي (باعتقادنا) إلى نفس المجموعة التي ينتمي إليها هؤلاء الآخرون، هي سجون لا نستطيع بسهولة أن نخرجهم منها. فكل لحظة حوار مع الآخر، هي لحظة نظرة جديدة إليه، تجعلني أراه مولوداً في كل لحظة.

← إخراج الآخر من التعميم، ومن **الصور** التي رسمناها عنه أو رسمها عنه آخرون، هو خطوة أولى في سبيل تحرير ذاتنا من سجن الرؤية المعتمدة بما يؤدي إلى تحرير الآخرين من سجن نظرتنا.

بهذا المعنى نفهم الفرق بين الحوار و الجدل و بين الحوار و النقاش، فالجدل طريقة كلامية تقوم على قاعدة "إن قلت كذا... قلنا كذا"؛ فالجدال سالب ينهض على أرض التناقض، والتضاد، والإبلاغ، والإرسال، والاستجواب، والمحااجة، ودحض ما لدى الآخر من أفكار، وافترض النقض والضعف والبهتان والتهافت في اعتقاداته. و النقاش لا يشارك بالضرورة الحوار في أهدافه، و لذلك نقول أن في كل حوار نقاش و لكن ليس كل نقاش حوار، إذ الحوار موجب بالضرورة، كما يجري الحوار ضمن سيورة متكافئة ومتوازية تتكامل شيئاً فشيئاً ضمن دائرة ينشئها الطرفان المتحاوران هي في حقيقتها حصيلة منطقية لأفكارهما معاً.

من المفيد أن نعود من جديد كما انطلقنا إلى الراهن لفهم كيف أن مطلب الحوار هو طلباً للكلّي و كيف أن المسألة من جهة الاختلاف لا تتعلق بمجرد اللقاء بالآخر و إنما كذلك للقاء الذات و تحديد الهوية.

فيتميز الراهن بظهور أقلّيات و مجموعات تمتلك خصوصيات عقائدية و فلسفية و دينية و أخلاقية و دينية و خصوصيات ثقافية مختلفة، و لعلّ هذا ما يفسر تعدد و اختلاف طرق العيش و السلوكيات و الممارسات، وفي ظلّ هذا الراهن يتنزل سؤال تايلور عن الهوية: كيف يمكن الاعتراف بالاختلاف؟ كيف يمكن أن تتعايش هذه الأقلّيات بالرغم من اختلافها فيما بينها؟ ما هو المبدأ السياسي القادر على احتواء هذا التنوع في ذات الفضاء؟ أي المبدأ القادر على ضمان التعايش من جهة و على فرض الاعتراف بالاختلاف من جهة ثانية؟

ينقد تايلور مقترح [ جون رولس ] و [ يرغن هيرماس ] في ما يسمى مبدأ الحد الأدنى المشترك الذي ينتقل من الكثرة إلى الوحدة، و يحتكم هذا المبدأ إلى العدل و حقوق الإنسان [ رولس ] أو التواصل و الوطنية [ هيرماس ] و يكشف في دفاعه عن الخصوصية- كيف أن هذه المبادئ و النماذج القائمة على الكوني و على التصوّر الكانطي لاستقلالية الذات غير قادرة على استيعاب الاختلاف على الاعتراف بتنوع الهويات و ينجر على الاحتكام إلى هذه المبادئ جملة من المزالق الإيتيقية و السياسية. هذا الموقف النقدي الذي ينطلق منه تايلور يدفعه لمساءلة الهوية من جديد و يدفعه للقول بأن الكونية هذا المبدأ الذي ورثناه من فكر الأنوار لا يتماشى مع راهن الاختلاف.

C.Taylor : « l'universel ne peut plus répondre à la demande et au besoin de la reconnaissance de différentes identités culturelles. »

باسم الكونية و مبدأ الحيادية يقع تجاهل الهويات المختلفة و الأقلّيات الاثنية، و إذا كانت الهوية تحيل في جوهرها على هذا "الإطار" الإيتيقي-الذي من خلاله تدرك الأنا ذاتها و تضيف معنى على العالم- فإن الكوني يجرّد الإنسان من هذا الإطار، أو يستعيز عنه بإطار سياسي يقتلعه من انتماءه الثقافي ليبقيه مواطناً. و على هذا الأساس يجب أن نتحرّر حسب تايلور من النموذج الليبرالي باعتباره نموذجاً يقصي الاختلاف و يفرض نموذج المماثلة و التطابق، فمفهوم الإرادة العامة الذي يمثل



المعهد الثانوي الخاص النخبة - مسألة الفعورية و الكونية

جوهر الفكر التعاقدى الروسوي يمثل الوجه الناصع لاختزالية و تضيق الكلي السياسي، بل يمثل اللحظة التاريخية لموت "الإطار" الثقافى. يكشف تايلور أنه ليس من الممكن التحرر من الكونى إلا فى ظل إدماج فكرة الاعتراف و هو إدماج يفصل بين الشرف بما فيه من دلالة تقرّ ضمناً بالتفاضل؛ و بين الكرامة بما هي دلالة تقرّ ضمناً بالمساواة.

C.Taylor : « la politique de la différence croît organiquement à partir de la politique de la dignité universelle ».

الهوية إذا كما هي انتماء هي إنشاء، و هي بهذا المعنى تتشكل و تتحدّد بفضل تدخل الحوار أو ما يسميه تايلور العلاقة الحوارية التي تصنع بفضل جملة التوافقات أو "الملانمات" أو "التسويات" les accommodations



C.Taylor : La reconnaissance = "acceptation de valeur égale". = "conversation" entre diverses identités : "cette identité devrait se forger en conversation avec d'autres et implique une certaine reconnaissance"

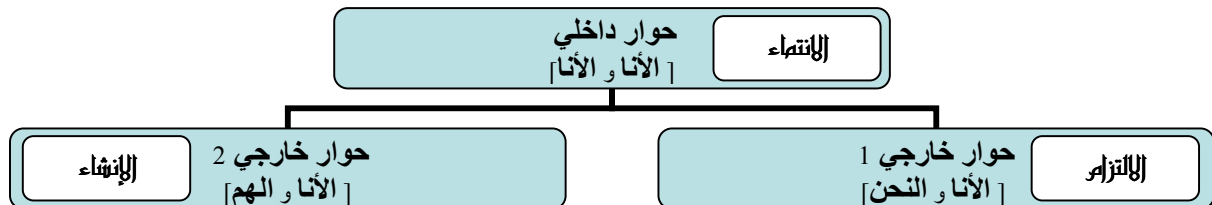
[ لجنة بوشار-تايلور<sup>3</sup> ]

\* لقد اعتبر شاد تايلور بأن الحوار المتبادل هو طريقة "إقناع" تشوبها الكرامة في تعامل كافة الأطراف والتي وإن اختلفت آراؤها، فإن مصلحة مشتركة تجمعها، تكمن في البحث عن أكبر قدر ممكن من الحقيقة التي يمكن لعقل أن يتوصل إليها عبر جوار الحوار ليس دفاعاً عن تعدد الثقافات فحسب multiculturalisme وإنما عن الفضاء البين ثقافى يعبر عن حاجة إنسانية و يقوم الاعتراف على تصور حوارى مع الآخر إذ "تتحدّد هويتي من خلال

تايلور...العلاج الوحيد هو إيجاد، في كل من هذه الحضارات، الأشخاص القادرين على التحاور، على الكلام. يجب ربط الاتصالات والتأييد المتبادل، بهدف إعادة متطرفينا إلى صوابهم، لأن من البديهي أن المتطرفين يوجدون في كلا الجانبين.

تايلور: "إبراز الآخر كعدو لنا هي لعبة جد سهلة للعب عوض الحوار. فعلاً، تشبّك حرب الحضارات هذه، لأنه يتم إقناع الناس من هذا الطرف و ذاك بأن كل الآخرين هم ضدننا بأن ليس هناك شخص يمكن التخاطب معه في الجانب الآخر."

مستويات الحوار :

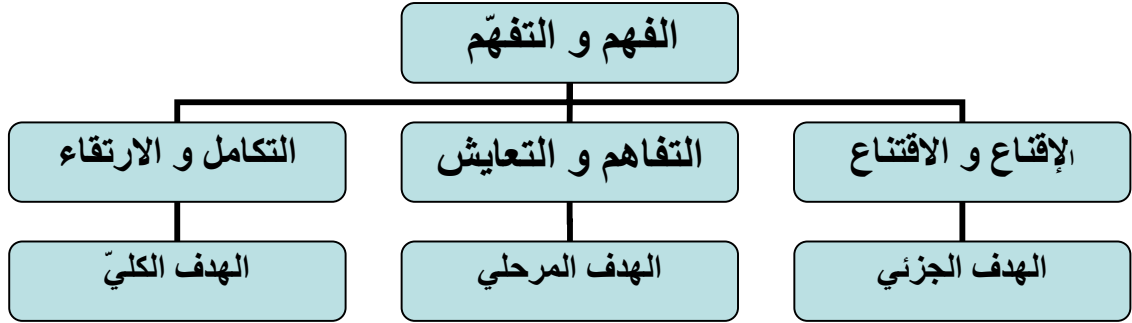


أهداف الحوار :

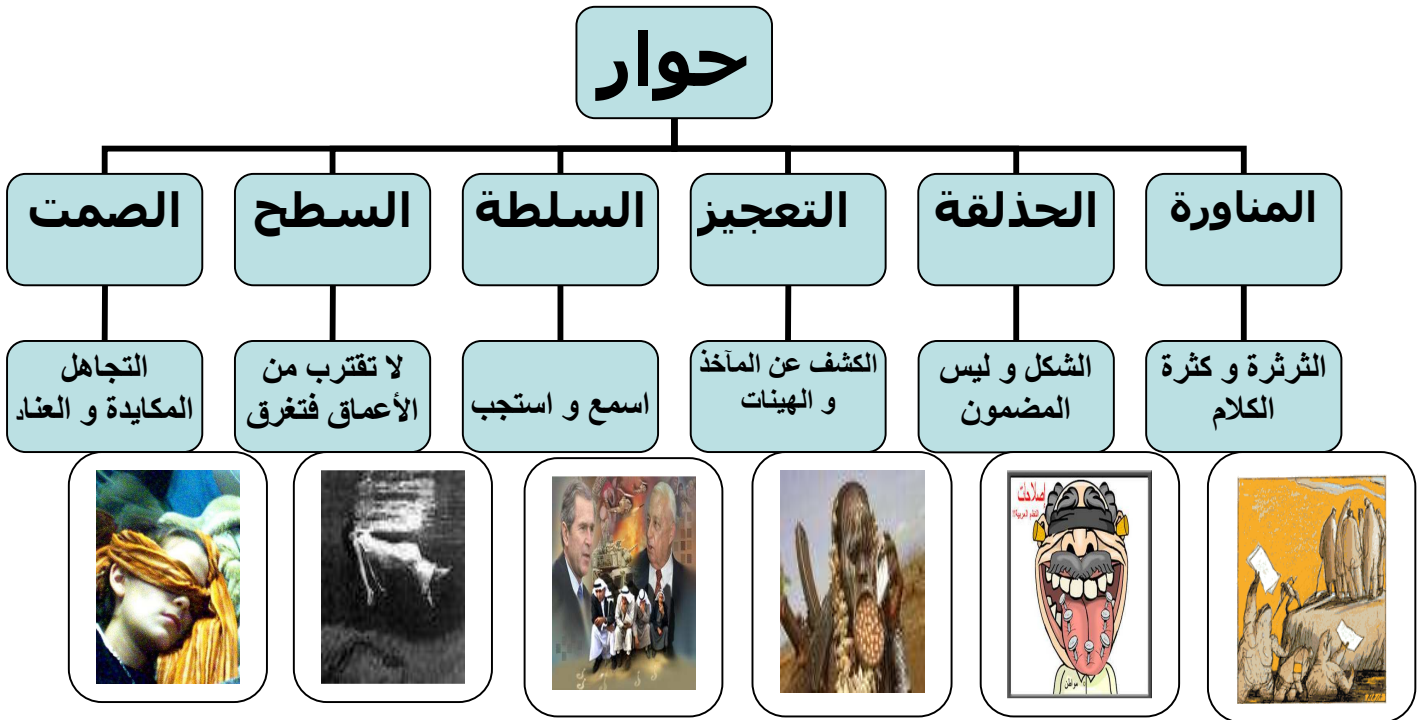
<sup>3</sup> - يمكن العودة للموقع الرقمى [www.accommodements.qc.ca](http://www.accommodements.qc.ca) لقراءة نموذج من الأسئلة التي طرحتها لجنة بوشار/تايلور على الجمهور.



المعهد الثانوي الخاص النخبة - مسألة الفعوصية و الكرتية



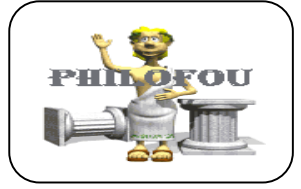
الحوار المرضي [ ما هو شائع ]



حتى لا يتحول حديثنا استعراضا للأفراط المرضية للحوار سنكتفي بما تقدم مع التذكير بأن ما تقدم هو الموجود و أن ما نفكر حقيقة فيه هو المنشود، و أن غيابه لن يثينا عن طلبه أو تحديد شروطه و مقوماته.

الحوار الصحي إذا هو ذاك يقتضي السير سوياً، في طريق التعقل و الفهم و التفهم و التفاهم. من هذا المنطلق، تصبح غاية كل حوار، هي السير إلى الأمام، في طريق الكشف عن الحقيقة بقدر الإمكان؛ من خلال ما يحجبها من رواسب الدغمانية و التعصب أو الريبة و التنكر. و نحن لا ننكر وجود بعض المزالق التي تعطل السير نحو حوار ثقافي مبدع و خلاق، إذ ليست المزالق إلا استتباعاً لواقع الحوار المرضي الذي قدمنا عينات عنه، بالإضافة إلى أن كل واحد من الكيانات الثقافية المتواجدة اليوم، يكاد





يكون مستغلقا ومغلقا على نفسه، إلى حد يبدو فيه أن الاختلاف بين هذه الكيانات الثقافية، هو اختلاف جذري لا سبيل إلى تجاوزه. وأنه بدلا من حوار ثقافي إيجابي و منتج، لا نجد في نهاية المطاف، إلا التنافس و صراع المصالح، إلا إرادة الاستعلاء وبسط الهيمنة، و لغة التعصب و العنف، تطغى سرا و علانية، على العلاقات الثقافية السائدة!

وفضلا عن ذلك، يفرض على بعض الكيانات الثقافية أو الخصوصية - أمام هيمنة كوني إيديولوجي أو عولمي - خيارا واحدا: إما الاندماج والاتصهار التدريجي في منظومة جديدة من القيم و مبادئ ما يسمّى بالنظام العالمي الجديد<sup>[4]</sup>، و إما التقوقع و الانكماش المُفْضي مع مرور الزمن إلى العزلة المميّنة على عكس التفكك القاتل<sup>[5]</sup>. و هل نبّدد جديدا عندما نقول، إن العولمة وعلى الأقل، كما ندركها حاليا و نشهد آثارها، تعمل على تكريس الثنائية و التمزق و الانشطار في الهويّات الثقافية الوطنية. هل من معنى إذا للحديث عن حوار حقيقي أو صحّي اليوم في زمن لا يعد فيه الكوني العولمي إلا بالمزيد من التفكك و التفسخ و السطحية والابتذال أو مزيد من العنف و القتل و الإرهاب؟ بل أكثر من ذلك هل من معنى للحديث عن ثقافة هويتها مكانتها السياسية وإطارها القيمة الاقتصادية؟ والعكس بئس و شقي هل من معنى لسياسة يعاد تشكيلها وفق جغرافيا ثقافية<sup>[6]</sup>؟

والعولمة ليست هي المشكل الوحيد الذي يجب أن نواجهه اليوم، بل يجب أن نواجهه نرجسية الآخر الثقافي، فالعقل الغربي يدافع عن العقل الكوني بالقرر الذي يسجن نفسه في ثقافة تضيق على العقل و تتعامل مع الآخر الأنا كغيرية أي كآخر لا يرقى إلى مستوى الند<sup>[7]</sup>، وفي نظر صوفي بسيس، تقوم أسس الثقافة الغربية، وخاصة زمن الحداثة، على مبدأ نفي الآخر، وعلى منهج الشك في كل ما ليس أنا، فمنطق الأنا كما أفرز الثنائية أفرز نظرة الاستعلاء، و قيم الحداثة، التي تُصدّرنا هذه الثقافة للفضاءات غير الغربية، لا تخلو من مظاهر التوجّه الاستعلائي، سواء تمت باسم الدين أو باسم المقدس<sup>[8]</sup>، أو الأخلاق، أو الحداثة، أو القيم الديمقراطية أو باسم حقوق الإنسان. و غير بعيد عن هذا السياق، يشير الباحث الإنجليزي توماس ماك إيفلي، Thomas MC Evilly، في كتابه: الهويات الثقافية في أزمة<sup>[8]</sup>، إلى أن الهوية الثقافية الغربية ذاتها، تعاني من أزمة مسكونة بعقدة التفوق والاستعلاء على ما سواها من الهويات الثقافية الأخرى؛ و من منطلق هذا التوجّه الاستعلائي للثقافة الغربية عموما، تُصنّف كبرى الدول الغربية المهيمنة في عالم اليوم، على مصادرة حق الآخرين في الاختلاف. و على احتكار الحق، في بلورة القيم الحضارية و الكونية لنفسها، وتُكرّ هذا الحق على الآخرين. فالغرب المتقدم، وعلى ما بات ينكشف لنا باستمرار، غدا عاجزا عن الاعتراف بالآخر، إذا لم يُرجع إليه هذا الآخر صورته و يعكسها في مرآته. و أي خروج عن قسّمات ومعالّم هذه الصورة، يعدّ تخلفا أو همجية<sup>[9]</sup>، و بذات المنطق تحدث المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما، ليقول إن "الإسلام هو الحضارة

<sup>4</sup> - هذا ما دفع البعض اليوم للتشكيك في النظام العالمي الجديد باعتباره الوجه المعاصر لفكرة المركزية الثقافية.

<sup>5</sup> - يميّز جان بودريار في كتابه السلطة الجهنمية بين الثقافات التي ماتت في خصوصيتها واعتبر أن هذا موت طبيعي، و بين الثقافة التي تموت من فقدان كل خصوصية، و هذا هو الموت العنيف على حدّ عبارة هوبز، و هذا ما يدفعنا إلى التمييز مع بودريار بين ثقافة ماتت و ثقافة قُتلت.

[ يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [ شعب علمية ] تحت عنوان (العالمي و الكوني) ص175 ]

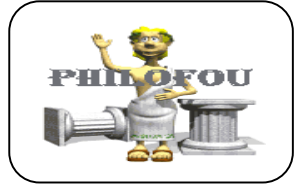
<sup>6</sup> - طرح صامويل هنتجتون في كتابه صدام الحضارات مشكل انخراط السياسي في الثقافي، و هو ما يفسّر حسب رأيه الإنتقال من "سؤال من أنت؟" إلى سؤال إلى أي جانب أنت؟ و "على كلّ دولة أن تجد اجابة، إجابة تحدد هويتها الثقافية، و مكانتها في السياسة العالمية، كما تحدد أصدقاءها و أعداءها" [ يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [ شعب علمية ] تحت عنوان (السياسي و الثقافي) ص171 ]

<sup>7</sup> - Sophie Bessis, L'Occident et les autres, Histoire d'une suprématie, Editions La découverte, Paris, 2001

<sup>8</sup> - Thomas MC Evilly, l'Identité culturelle en crise, Traduction française, Editions Jacqueline Chambou, Paris, 1999

<sup>9</sup> - كشف مونتانيو في المقالات كيف يكون ما لا يتفق مع الصورة أو العادة همجية أو وحشية إذ يقول لحظة تحدث عن سلوكيات الأقوام البدائية بأمريكا الجنوبية: "لم أجد في كلّ ما قُ لي همجية أو توحشا عند هذه الأمة اللهم إلا إذا كان كل واحد يسمى همجيا ما يتفق مع عوانده".

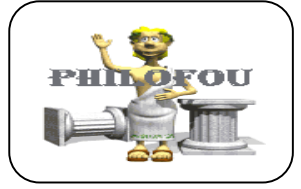
[ يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [ شعب علمية ] تحت عنوان (الهمجية) ص138 ]



الوحيدة التي ما زالت عصية على الاحتواء الغربي و على "الحداثة". و على نفس المنوال والنغمة، يعزف مفكر أمريكي آخر ذائع الصيت، صامويل هنتجتون، و يكتب "إن الصحو الإسلامية هي رد فعل ضد الحداثة والتحديث و العولمة"؛ ولكن المغالطة في هذا المنطق بينة إذ الرفض في جوهره ليس لقيم الحداثة أو القيم الإنسانية و إنما هو رفض لقوى الهيمنة والاستغلال. و ليس تفريطنا للاختلاف حبا في الاختلاف و إنما اعترافا بمكانته؛ و ليس لأننا نضفي عليه قيمة مطلقة، فالاختلاف من أجل الاختلاف، أو الاختلاف المطلق معناه تشجيع التفرقة والتنازع؛ معناه تشتيت لا نهاية له للآراء والمعتقدات، كل منها مغلق على ذاته رافض للآخر. و في تقديرنا، إن المهم هو نوعية التأويل والاستثمار الممكن إعطاؤهما لظاهرة **الاختلاف** الثقافي. فإذا نحن اقتصرنا فقط على إبراز الاختلافات الثقافية، و إذا نحن أصرنا على اعتبار تلك الاختلافات، ذات طابع مطلق و لا سبيل إلى التفريق بينها، و إذا نحن اكتفينا فقط بجرد الصعوبات و العراقيل المنتصبة أمام مبادرات الحوار بين الثقافات، فإننا في نهاية المطاف، سنجد أنفسنا في عالم لا **تواصل** فيه و لا حوار؛ عالم كل طرف فيه يحرص على ألا يتكلم سوى لغته الخاصة. نحن نعتقد أن بمقدورنا تغيير وجهة نظرنا إلى واقعة **الاختلاف** الثقافي بحيث تصبح أكثر إيجابية. و في هذا السياق يمكننا القول، إن احترام حق **الاختلاف** الثقافي مطلب مشروع، لأنه حق من حقوق الإنسان، الهدف منه مقاومة الاستلاب الثقافي، والحفاظ على **الهوية** و على الجذور. و في الوقت ذاته هو الوسيلة الطبيعية للحفاظ على التعدد و التنوع الثقافي، كمجال خصب للتعاون وللإثراء المتبادل، وإمكانية ديمقراطية بفضلها يمكن إنقاذ ثقافات كثيرة من الاستساح و من الانقراض، إننا نُسَلِّمُ بأن ليس هناك مجال للحوار الثقافي إلا مع وجود الاختلاف. فالمفروض أن الحوار الحقيقي، يجري عادة بين أطراف تختلف عن بعضها، في المعتقدات والتوجهات والرأي، و يستمد حيويته من عناصر الاختلاف و عدم التماثل. فما جدوى أن يحاور الإنسان مثيله ونظيره الذي يتفق معه في كل شيء؟ إن الثقافات المتعددة والمتنوعة، المنتشرة في الفضاء الإنساني، يدين بعضها لبعض ربما بأهم ما يملك. و كل واحدة منها هي في واقع الأمر، حصيلة تمازج وتلاقح. و هذا التمازج والتلاقح، الذي نادرا ما نجد من ينكر طابعه الكوني، يبين لنا أن الإبداع الثقافي، لا يمكن أن ينمو ويزدهر في بيئة منكشحة على نفسها و معزولة، و إنما هو على العكس من ذلك، يجد حيويته و خصوبته، في تضافر و تفاعل العناصر المختلفة عن بعضها. و ثمة شرط آخر، من الضروري توفره لتفعيل أي حوار بين الثقافات، إنه **مبدأ التسامح**. و لا نشك في أن التحلي بفضيلة التسامح، في معناه الإيجابي، أي في معنى ألا يُنظر إليه على أنها منة و تنازل، بل على أنه اعتراف بحق المغايرة؛ إن التحلي بهذه الفضيلة، يمكن أن يساهم في إيجاد أرضية للتعايش و السلام بين الثقافات في عالمنا المعاصر؛ كما يمكن أن ينعش مبادرات الحوار بين الثقافات، لمواجهة مظاهر الكراهية والتهميش و النبذ والإقصاء، تجاه المنتمين إلى ثقافات ومجتمعات معينة. ولا نبتدع جديدا عندما نعيد إلى الذاكرة هذه الحقيقة التاريخية: إن مفهوم التسامح في سياقه التاريخي الغربي، ظهر أصلا في ظروف الحروب الدينية المذهبية<sup>10</sup>، التي فرقت دول وشعوب أوروبا خلال فترة طويلة، و إن حمولته الأخلاقية ساهمت في تمثّل وامتصاص حدة و عنف الصراع بين المذهبين الأساسيين للمسيحية الأوروبية آنذاك: الكاثوليكية والبروتستانتية. إن التسامح من جهة، و اعتماد المنظور المقارن من جهة ثانية، ضروريان جدا لاكتشاف الطابع النسبي لجميع المنظومات الثقافية البشرية، رغم ما قد يكون

<sup>10</sup> - تحدث تزيفيتان تودوروف في كتابه اللانظام العالمي الجديد عن ارتباط مفهوم التسامح بالإرث الديني، و إن اعتبر أنه أصبح مفهوم التسامح اليوم أكثر اتساعا. [ في الكتاب المدرسي شعب علمية. نجد نص التسامح ص 136 ]





لها من عراقة و عظمة. أما الاعتقاد بالانفراد بامتلاك الحقيقة دون سائر البشر، فإنه يؤدي بالضرورة إلى الاستبداد و التعصّب الأعمى، ورفض الفكر الآخر جملة و تفصيلا. و إذا كنّا نحن المنتمنين إلى الحضارة العربية الإسلامية، نوّمن بقوة، بأن منظومتنا هي من أعرق و أغنى المنظومات الثقافية العالمية، فإن من واجبنا كذلك ألا يغيب عن بالنا أنه من غير الممكن لنا تماما، أن نجعل من باقي ثقافات العالم نسخاً من ثقافتنا.

### مرحلة الاستخلاص

\* إن ثقافة الحوار تنحو بالتدرّج، إلى أن تصبح بالنسبة لجميع الدول و الشعوب خياراً ضرورياً، ذلك لأنّ عالم الغد، لا يمكن تشييده فقط على حتمية الصراع و العنف المتبادل بين الثقافات البشرية، نتيجة التوقع في عقْد التفوّق و الاستعلاء، ونتيجة النزوع إلى احتكار امتلاك الحقيقة ونشرها و توزيعها. فالعالم قد يتحوّل إلى جحيم، إذا إنغلقت الخصوصيات في عزلتها القاتلة.

\* إن الحوار من أجل بلورة قيم كونيّة تستمد مبادئها من جميع الثقافات البشرية، ممكن و ليس من قبيل المستحيل. و مهما قيل عن تأثير ظاهرة العولمة في إعاقة الحوار بين الثقافات، فلا نظن أن المشكل الحقيقي يكمن فيها بقدر ما يكمن في الإنسان.

\* وهناك مجموعة من المفاهيم و القيم، في الأخلاق و الحقوق و القضايا المعرفية، تعتبر قاسماً مشتركاً بين جميع الثقافات البشرية، وهي مؤهلة للتطوير نحو ما هو أفضل بالنسبة للجميع. كما أن المثل العليا المشتركة بين الديانات التوحيدية، كالعدالة، والتفاهم، والرحمة، و التواضع، و التسامح، و التضامن، و التشاكر، و الحوار، و نبذ العنف، ينبغي أن تجمع لا أن تفرّق، و أن تساهم في التضامن الأخلاقي لا في المواجهات الصّدامية بين الحضارات.

\* و فضلاً عن ذلك، هناك عناصر أخرى يمكن أن تكون بمثابة حوافز إضافية لإعاش الحوار بين الثقافات، منها تربية الناشئة على حقوق الإنسان، و على حقوق المواطنة، و على أخلاقيات الحوار بين الثقافات.

\* حقا إن ثقافة الحوار هي الحل الذي يكاد يكون مفروضاً علينا، حتى لو كنا نعتقد في أعماقنا أن هذا الحل ليس بالمعجزة التي يمكن أن تحل جميع مشاكلنا مع الآخرين، و تدلّ كافة العراقيل و الصعوبات التي تعترض سبيل تقدمنا و تنمية مجتمعاتنا. و لكن إذا كان ما قاله كلود ليفي سترأوس صحيحاً: " أن العالم بدأ بدون الإنسان و سينتهي بدونه" فإننا نقول أن الأصحّ أن لا تكون النهاية بفعل تدخل الإنسان، لأنّ المحنة التي لا يد لنا فيها تعدّ قدراً أم التي يكون علّتها الإنسان فإنها الجنون و العدمية...